التشبيه التمثيلى في الحديث النبوى

(من خلال صحيح البخارى)

الدكتور
محمد السيد عبد الرازق موسى
أستاذ مساعد البلاغة والنقد
كلية التربية - جامعة المنصورة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين وسلم تسليما كثيرا الى يوم الدين ...

وبعد ..

فإن النبى صلى الله عليه وسلم قد أوتى روائع البيان وحسن البلاغ ، أدبه ربه فأحسن تأديبه فكان مثالاً يحتذى به فى كل شىء ... والحديث النبوى الشريف يظهر فى أعلى درجات التفوق العلمى والأدبى.. نص يرتفع الى أعلى البيان البشرى وكيف لا وقد كان صلى الله عليه وسلم أفصح العرب ، نزل القرآن المعجز على قلبه وتحرك أول ما تحرك به لسانه الشريف ، فتساقط أمامه أئمة البيان وأرباب اللغة ..

وقد أُوتى النبى صلى الله عليه وسلم جوامع الكَلِم ، فكان من كلامه ما صار مثلا سائرا يجمع المعانى العظام فى أقل الكلام !! ، فمن ذلك قوله : الآن حمى الوطيس ، وقوله : مات حتف أنفه ، وقوله : يا خيل الله اركبى .... وقد قال فصحاء العرب من بليغ الكلام ما قالوا ، فلم يصر كلامهم مستعملا أو مثلاً سائراً !!

وإن كان الكلام النبوى قد تميز بقلة عدد الحروف وكثرة عدد المعانى فإنه قد " جلَّ عن الصنعة ونُزِّه عن التكلف ، فكيف وقد عاب التشديق وجانب أصحاب التقعير ، واستعمل المبسوط فى موضع البسط والمقصور فى موضع القصر ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة ، وشيد بالتأييد ويسر بالتوفيق" (١)

فهذا منطق النبى صلى الله عليه وسلم ينم عن استواء شخصه وكمال عقله هذا هو المنطق الذى يمر بالفكر قبل أن ينطلق إلى الفم ، وأن العقل فيه من وراء اللسان فهو غالب عليه ، مصرف له ، حتى لا يعتريه لبس ولا يتخونه نقص ، وليس إحكام الأداء وروعة الفصاحة وعذوبة المنطق وسلاسة النظم ، إلا صفات كانت فيه

(١) الجاحظ – البيان والتبيين – تحقيق محب الدين الخطيب- مطبعة الفتوح – القاهرة – ١٣٣٢هـ- ٨/٢

صلى الله عليه وسلم عند أسبابها الطبيعية ، لم يتكلف لها عملا،ولا ارتاض من أجلها رياضة بل خلق مستكمل الأداة فيها ، ونشأ موفر الأسباب عليها "(١)

مشكلة البحث :

تكمن مشكلة البحث في وجوب التعرض لأحاديث النبى صلى الله عليه وسلم بوصفه نصاً أدبيا بليغاً يقوم على التصوير الفنى لعالم المحسوسات والغيبيات تصويراً رائقاً مستخدماً العلاقات والوسائل المختلفة من ألفاظ وعبارات وموسيقى وقصة ، ليضع القارىء أمام واقع حقيقى ملموس يرى فيه مواطن الجمال فى التعبير الأدبى .. وكان التشبيه التمثيلى أحد هذه الألوان البلاغية والوسائل البيانية الرائعة التى أطلقها النبى صلى الله عليه وسلم لتخاطب حواس المتلقى وتهز وجدانه ومشاعره وتربى ذوقه.

منهج البحث :

إن الناظر لأحاديث النبى صلى الله عليه وسلم يرى فيها المعانى العميقة المترامية الأطراف التى تحمل فى طياتها الأغراض والأساليب ومعالجة خبايا النفس والمجتمع ، وقد رأيت – بتوفيق من الله تعالى – أن يكون منهج البحث على النحو الآتى :

أولا : مكانة التشبيه :

وقد وقفت مع أقوال البلاغين فى التشبيه التمثيلى ومكانته فى الأسلوب الأدبى وقيمته البلاغية ودوره الفعال فى العبارة والنفس .

ثانيا : التشبيه التمثيلى وأغراضه البلاغية :

وكانت هذه الوقفة مع بعض الأحاديث التى حملت التشبيه التمثيلى فى طياتها وبيان الغرض البلاغى من وراء هذا التشبيه كالتزيين أو التحقير أو بيان الفضل....الخ.

---

(١) مصطفى صادق الرافعى – اعجاز القرآن والبلاغة النبوية -ط٤- مطبعة الاستقامة -القاهرة- ١٩٤٥- ص٣٢٩

ثالثا : الخصائص الفنية للتشبيه النبوى :

وقد وقفت مع اللغة والأسلوب الذى استخدمه النبى صلى الله عليه وسلم فى التعبير عن الموضوع وكذا - أيضا- التصوير الموسيقى ، والتشبيه التمثيلى من خلال الوعاء القصصى .

ثم أخيرا الخاتمة وقد تضمنت أهم نتائج البحث .

أولا : مكانة التشبيه :

إن التشبيه من الألوان البلاغية التى يستعين بها البلاغى لكى ينقل فكرته فى وضوح ورسوخ ، ويستطيع أن يعبر عما يجيش فى نفسه فى طرافة بليغة ومقدار هائل من الخيال الرحب الذى يعيش فيه المتلقى ، مما يجعله يحلق فى آفاق المعنى مجسداً كأنه صورة حية واقعية ..

وإذا كان ذلك كذلك ، فإن التشبيه التمثيلى – بصفة خاصة – يعمل على وجود تلك المعانى والإحساسات الرائقة لما يحدثه فى نفس من رواج فكرى واعتمال نفسى واسع المجال ...وهو أسلوب بليغ عظيم الأثر ، عرفه العرب فى أشعارهم وكلامهم وتوسلوا بهذا اللون البيانى فى رسم صورهم الفنية وإثبات ما يريدون إثباته من معنى عميق ..

وقد جاء القرآن الكريم حاملاً الكثير من هذا اللون البلاغى البديع ، وخاطب الله به العرب ، خاطبهم بما عرفوه وألفوه ومارسوه .. ومن ذلك يقول الله تعالى " **مَثَلُ الذين اتَّخَذُوا من دون الله أَوْلياء كَمَثَلِ العنكبوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وإن أَوْهَنَ البيوت لَبَيْتُ العَنْكَبُوتِ لو كانوا يَعْلَمُون** " (العنكبوت ٤١)

فهذ تشبيه تمثيلى رائق يبين حقيقة هؤلاء الأولياء الذين اتخذهم الكافرون من دون الله،فهم قد اتخذوا الأوثان درعا وقوة ينتصرون بهم من دون الله وهى من الضعف بحيث لا تستطيع أن تنصر نفسها ، فكانوا كالعنكبوت التى اتخذت بيتا من خيوطها الواهية الضعيفة ، وهى تعتقد أن ذلك البيت يحميها .

إنه " تصوير عجيب صادق لحقيقة القوى فى هذا الوجود . الحقيقة التى يغفل عنها الناس أحياناً ، فيسوء تقديرهم لجميع القيم ، ويفسد تصورهم لجميع الارتباطات ، وتختل فى أيديهم جميع الموازين ، ولا يعرفون الى أين يتوجهون ، ماذا يأخذون وماذا يدعون " (١)

(١) سيد قطب – فى ظلال القرآن- ط٢٥ – دار الشروق- القاهرة- ١٩٩٦- ٢٧٣٦/٥

والصورة التشبيهية تعمل على إيجاد فضاء رحب من الخيال وهو خيال طلق، ينطلق فى حرية مطلقة الحدود والحواجز ، ولكنها فى نفس الوقت حرية خيالية مقيدة بدرجة معينة من تناسب الواقع والبيئة والحياة بأسرها ، وهذا حتى لا ينقلب الخيال إلى وَهْم لا يفرق بينه وبين أوهام أو خيالات المجانين الذين يُحَلّقون فى عالمهم بخيال مطلق يفتقد الهوية والخيوط المترابطة المتناسقة .

والتشبيه التمثيلى له مزية خاصة فى إثراء الخيال وإطلاقه ، وهو قد تميز عن التشبيه الضمنى فى عصر متأخر من تاريخ البلاغة ،" فقد كان القدماء – قبل شرح التلخيص – يجعلون التشبيه تمثيليا إذا كان وجه الشبه فيه عقلياً ، سواء أكان منتزعا من متعدد أم لم يكن كذلك ، ولكن المتأخرين منهم أخذوا يحددون هذا الضرب من التشبيه تحديداً صارما كان من شأنه أن يفصل بينه وبين التشبيه الضمنى ، واستقروا على رأى موحد فى حد التشبيه التمثيلى فهو عندهم تشبيه وجه الشبه فيه منتزع من متعدد ، سواء أكان عقلياً أم حسياً ، كما نرى فى قول بشّار :

كأنّ مُثار النقعِ فوق رؤوسنا وأسيافَنا ليلٌ تَهَاوَى كواكبُه

الشاعر لا يعقد صلة مشابهة بين جزء وآخر ، ولكنه يعقدها بين تراكب العناصر فى المشهد الأول وتراكبها فى المشهد الثانى " (١)

- وهذا المتنبى يشبه الأسد بطبيب يترفق بالمريض ، يقول :

يَطأُ الثّرى مُتَرَفّقاً من تِيهِهِ فكأنه آسٍ يَجُسّ عَلِيلا

فقد عقد الشاعر صلة تشبيهية بين هيئة الطبيب فى حركته الهادئة الحانية وهو يجس المريض برفق ، وبين هيئة الأسد فى حركته الهادئة المتزنة وهو يمشى مزهواً بنفسه، وكأنما يترفق بالثرى أو يتودد إليه .

---

(١) د . أحمد بسام – الصورة بين البلاغة والنقد – ط١ – المنارة – دمشق – ١٩٨٤- ص ٦٩

- وقد اختلف البلاغيون فى كون التشبيه معدودا فى المجاز أو غير معدود ، فمنهم من قال بأنه حقيقة وأولهم عبد القاهر الجرجانى ، وقال الزركشى والمحققون على أنه حقيقة ... ولا يعد التشبيه من علم البيان عند مدرسة السكاكى ، وإن بحثه فيه، لأن دلالته وضعية ، وعدّه كثير من البلاغيين ركنا أساسياً فى بحوث البيان ... وذهب آخرون إلى أن التشبيه مجاز ، كابن الأثير وابن رشيق وابن قيم الجوزية ، والحق – كا يذكر الدكتور أحمد مطلوب – أن التشبيه مجاز ، لأنه يعتمد على عقد الصلة بين شيئين أو أشياء لا يمكن أن تفسر على الحقيقة ، لو فسرت كذلك لأصبح كذبا ، وهو الفن الكثير الاستعمال فى كلام العرب"(١)

وعبد القاهر الجرجانى يعتبر فى التشبيه التمثيلى وجها غير حقيقى ولو كان مفردا ، ولا بد عنده من التأوّل ، وقد ذكر فنا آخر يجمع بين غرابة التشبيه والتمثيل ، " والمعنى الجامع فى سبب الغرابة أن يكون الشبه المقصود من الشىء مما لا يتسرع إليه الخاطر ، ولا يقع فى الوهم عند بديهة النظر إلى نظيره الذى يشبهه به ، بل بعد تثبت وتذكر وَفَلْيِ للنفس عن الصور التى تعرفها " (٢) .

ثانياً : التشبيه التمثيلى وأغراضه البلاغية :

قد يأتى التشبيه للمبالغة أو الإيجاز أو التوضيح أو التزيين أو غير ذلك مما نذكره لاحقاً .. وهذا وإن كان أمراً أساسياً فى الإتيان بالتشبيه إلا أن هناك ما هو أهم وأعمق فى تأليف الصورة التشبيهية ، وهذا هو خروجه عن طبع لا عن تكلف ... فالتكلف – إذن - يفسد الصورة البلاغية عموماً ، والصورة التشبيهية لا تعد رائقة إلا

---

(١) د. أحمد مطلوب – معجم المصطلحات البلاغية وتطورها – المجمع العلمى العراقى – ١٩٨٦- ص ١٧٢، ٢٢١.
(٢) عبد القاهر الجرجانى – أسرار البلاغة – ط١– دار المدنى بجدة – ١٩٩١ – ص ١٥٧.

إذا جاءت خالية منه .. ومن الطبيعى أن يصدر هذا اللون البيانى نتيجة إعمال الفكــر والعقــل الذي يحمل الغرض البلاغي في نفس المتكلم ﷺ ، فيوجه التصوير وجهته التي يوليها ..

• **ونقف فيما يأتي مع هذا التشبيه التمثيلي وأغراضه البلاغية :**

أولاً : التزيين أو التحقير :

قد تنطلق الصورة البيانية حاملة التشبيه التمثيلي من أجل إبداء زينة الشيء ، فيقع الترغيب في النفس لكي تقبل علي ذلك الأمر المزيَّن ، فتنفعل به وتتمسك بفعله ، أو تعمل تلك الصــورة علي إظهاره في صورة قبيحة تنفر منها النفس وتقشعر منها الأبدان ، فيقع في النفس الــترهيب من فعله .

كقوله ﷺ : " **مثلُ المؤمن الذي يقرأُ القرآنَ كمثَلِ الأُتْرُجَّةِ ، ريحها طيبٌ وطعمــــها طيب ؛ ومَثَلُ المؤمن الذي لا يقرأُ القرآنَ كمثَلِ التمرة ، لا ريحَ لها وطعمها حُلْــوٌ ؛ ومثَلُ الفاجر الذي يقرأُ القرآن ، مَثَلُ الرَّيْحَانة ، ريحها طيبٌ وطعمها مُرٌّ ؛ ومثَـــلُ الفاجر الذي لا يقرأُ القرآن كمثَلِ الحنظَلَةِ ، ليسَ لها ريحٌ وطعمها مُرٌّ** " [(١)] .

- وفي رواية شعبة عن قتادة إضافة العمل إلي القراءة في حق المؤمن ، فقال ﷺ : " **المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به كالأترجة ..** " [(٢)] .

فوقع التمثيل في جانب المؤمن القاريء بالأترجة ، وغير القاريء بالتمرة ، والفـــاجر (أو المنافق) القاريء بالريحانة ، وغير القاريء بالحنظلة .

وهو تمثيل جمع بين الطعم المختلف والرائحة المختلفة من شأنه أن يرتفع بمكانة المؤمـــن ، ويخفض من مكانة المنافق ويحط من شأنه وهيئته ، إذ أنه قد جمع في التصوير بين ما ينطــوى

---

(١) ابن حجر العسقلاني _ فتح الباري بشرح صحيح البخاري _ مراجعة وتصحيح : محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب _ ط١ _ دار الريان للتراث _ القاهرة _ ١٩٨٧ _ جـ ٨ _ ص ٦٨٤ .

(٢) أخرجه البخاري _ أيضاً _ في فضائل القرآن _ جـ ٨ _ ص ٧١٨ .

عليه الداخل ، وما يظهر من سمت أو شكل خارجي .. وقد تكررت أدوات التمثيل بيـــن مثــلُ والكاف و دخول أداتين علي بعضهما (كمثل) ، وهو يأتي في مقام التذكير أو التنبيـــه علـــي أمر خطير يمس حياة الإنسان أو آخرته أو ما إلي ذلك ، وكثيراً ما ورد هذا في القرآن الكريـــم في مثل تلك المقامات .

• كقوله تعالي :

" مَثَلُهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون " [1] .

• وكقوله تعالي :

" ومَثَلُ الذين كفروا كمَثَلِ الذي ينعق بما لا يسمع إلا دُعاءً ونداءً .. " [2] .

• وكقوله تعالي :

" فَمَثَلُه كَمَثَلِ صفوان عليه تُرابٌ فأصابه وابلٌ .. " [3] .

• وقوله تعالي :

" مَثَلُ ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كَمَثَلِ ريحٍ فيها صِرٌّ أصابَتْ حَــرْثَ قَــومٍ ظلموا أنفسَهُم فأهلكَتْه " [4] .

• وقوله تعالي :

" فمَثَلُه كَمَثَلِ الكَلْبِ إن تَحْمِلْ عليهِ يَلْهَثْ أو تَتْرُكْهُ يَلْهَث .. " [5] .

---

[1] سورة البقرة الآية ١٧ .

[2] سورة البقرة الآية ١٧١ .

[3] سورة البقرة الآية ٢٦٤ .

[4] سورة آل عمران الآية ١١٧ .

[5] سورة الأعراف الآية ١٧٦ .

ونجد كلام النبوة يقتفى أثر هذا الإعجاز في دقة وتمكن من الفصاحة والبلاغة ، فأتى بهذا التمثيل بتلك الأدوات في مقابلة بديعية بين صورتي المؤمن وصورتي المنافق أو الفاجر .

وجاءت ((الحكمة في تخصيص الأترجة بالتمثيل دون غيرها من الفاكهة التي تجمع طيب الطعم والريح كالتفاحة ، لأنه يتداوى بقشرها وهو مفرح بالخاصية ، ويستخرج من حبها دهن له منافع ، وغلاف حبه أبيض فيناسب قلب المؤمن)) [1] .

• وفيها ــ أيضا ــ من المزايا كبر جرمها وحسن منظرها وتفريح لونها ولين ملمسها .

وتتجلى في الحديث نكتة بلاغية أخرى تظهر في الربط بين الإيمان والطعم ، والقراءة والريح الطيب ، وذلك لأن الإيمان ألصق بالمؤمن وألزم له ، إذ يمكن تحصيل الإيمان دون تلاوة ، وكذلك الطعم أيضا يمثل أساس الشيء وجوهره ..

وهذا التمثيل قد أظهر المؤمن في صورة حسنة وسمت طيب ، من شأنه أن يألف الناس ويألفوه ، وعلي الجانب الآخر أظهر صورة الفاجر أو المنافق في صورة قبيحة وهيئة مشينة من شأنها أن تنفر الناس منه .. وهذا التمثيل ــ إضافة لذلك ــ قد عمل علي تقريب المعنى للإفهام وإخراجه في صورة واضحة جلية .

وصورة بيانية أخرى يبين فيها النبي ﷺ صورة المنفق والبخيل ، وذلك عن طريق التشبيه التمثيلي في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول :

" مثَلُ البخيلِ والمنفقِ كمثَلِ رجُلَين عليهما جبتان من حديد من ثُدِيِّهما إلي تراقِيهما فأما المنفق فلا ينفق إلا سَبَغَتْ ــ أو وفَرَتْ ــ علي جلده حتى تُخفِى بَنَانَه ومعفُوَ أَثَرَه . وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئا إلا لَزِقَتْ كل حلْقةٍ مَكانَها ، فهو يُوَسِّعُها ولا تَتَّسِعُ " [2] .

---

[1] فتح الباري ٨ / ٦٨٤ .

[2] فتح الباري ٣ / ٣٥٨ .

فهذا تمثيل لبركة المال ونمائه بالصدقة ، ومحقه وهلاكه بالبخل ، وتبدو صورة الجواد إذا أراد إخراج الصدقة ، فنجده قد انفسح لها صدره ، وطابت نفسه فتوسعت في الإنفاق ..

أما البخيل فتظهر صورته القبيحة عندما تحدثه نفسه بالصدقة ، فنراه شحيحا قد ضاق صدره وانقبضت يداه .

o قال الطيبي : ((قيد المشبه به بالحديد إعلاما بأن القبض والشدة من جبلة الإنسان ، وأوقع المتصدق موقع السخي لكونه جعله في مقابلة البخيل إشعارا بأن السخاء هو ما أمر به الشارع وندب إليه من الإنفاق لا ما يتعاناه المسرفون)) [1] .

وهذا التمثيل الذي صوره النبي ﷺ للبخيل والمتصدق هو مثل لتشبيههما برجلين يلبسان قميصا حربيا أو درعا من حديد .. فشبه المنفق الجواد بمن لبس درعا سابغة فسترت كل جسده أما البخيل فقد شبهه برجل مغلول اليدين إلي عنقه ، كلما هم بلبسها اجتمعت في عنقه ولزقت بترقوته .. وقد جعل الجبة من الثدي إلي التراقي .

((وهذا من أبدع ما في الحديث ، لأن كل إنسان فهو منفق علي ضروراته ، وإنما التفاوت فيما زاد وسبغ من وراء هذا الحد ، فههنا يبسط الكريم بسطه الإنساني ، أما البخيل فهو (يريد) لأنه إنسان ، الإرادة عمل عقلي لا أكثر فإذا هو حاول تحقيق هذه الإرادة وقع من طبيعة نفسه الكزة فيما يعانيه من يوسع جبة من الحديد لزقت كل حلقة من حلقاتها في مكانها ، فهي مستعصية متماسكة ، فهو يوسعها فلا تتسع)) [2] .

وقد جرى الأسلوب في الحديث الشريف علي طريقة الحديث السابق من استخدام أداتي التشبيه : (كـ ــ مثل) ، ثم أجراه مجرى التشويق في البدء بالإبهام والغموض عن طريق اللف والتنكير في (رجلين) ، ثم الشروع في التوضيح شيئا ما : (عليهما جبتان ..) ثم التفصيل : فأما المنفق .. وأما البخيل ..

---

(1) فتح الباري ٣ / ٣٦٠ .

(2) مصطفى صادق الرافعي ـ وحي القلم ـ ط٢ ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٨٣ ـ ٢ / ١٤ .

وقد وقع في هذا النص الشريف إثارة ذهنية أخرى عن طريق النشر علي غير ترتيب اللف فقد كان استهلال الكلام بالبخيل ثم بالمنفق ، وفي النشر والتفصيل ذكر المنفق أولا والبخيل ثانيا .

وقد زخرت الصورة بحيوية الحركة ورسم ثقلها في ارتداء الدروع الحديدية حتى كأنها ماثلة أمام الأعين ففائدة التشبيه من الكلام هي ((أنك إذا مثلت الشيء بالشيء ، فإنما تقصد به إثبات الخيال في النفس بصورة المشبه به أو بمعناه ، وذلك أوكد في طرفي الترغيب فيه ، أو التنفير عنه ، ألا ترى أنك إذا شبهت صورة بصورة هي أحسن منها كان ذلك مثبتا في النفس خيالا حسنا يدعو إلي الترغيب فيها ، وكذلك إذا شبهتها بصورة شيء أقبح منها كان ذلك مثبتا في النفس خيالا قبيحا يدعو إلي التنفير عنها)) [1] .

ومما جاء من كلام النبوة في مدح المؤمن وإظهاره في صورة حسنة تسهش لها النفس وتأنس إليها ما شبهه بالشجرة ، يقول :

" إن من الشجر شجرةً لا يسقطُ ورقُها ، وإنها مثلُ المُسلم ، فحدثوني ما هي ؟ فوقع الناسُ في شجر البوادي . قال عبدُ الله : ووقَعَ في نفسي أنها النخلةُ ، فاستحييت . ثم قالوا : حدِّثنا ما هي يا رسول الله . قال : هي النخلة " [2] .

بدأ بالمشبه به لإثارة الذهن بغموضه وخفائه ، ثم أتى بالمشبه ثانيا من أجل التشويق .. واختيار الشجرة بلفظها ثم العدول عنها إلي لفظ النخلة فيه مزيد من التشويق وتصوير المعاني لترسخ في الأذهان وتزداد فهما وإيضاحا .

وهذه النخلة التي ضرب الله بها المثل في القرآن الكريم في قوله تعالي :

" وَمَثَلُ كلمةٍ طيبةٍ كشجرة طيبة أصلُها ثابتٌ وفرْعُها في السماء تُؤْتى أُكُلَهَا كلَّ حين بإذن ربها .. " [3] .

---

(1) ابن الأثير _ المثل السائر _ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد _ المكتبة العصرية _ بيروت _ ١٩٩٥ _ جـ ١ _ ص ٣٧٨ .

(2) فتح الباري ١ / ١٧٥ .

(3) سورة إبراهيم الآية ٢٤ .

فتظهر صورة الشجرة في الحديث الشريف بطول قامتها وارتفاعها في عنان السماء ، وهي مع ذلك تضرب بجذورها في باطن الأرض في رسوخ وثبات ، وهي متماسكة الأوراق دلالة علي نضارتها ودوام كسوتها وثمرها .. والربط بين ذلك وبين هيئة المسلم في ثباته ورسوخ عقيدته وعلو همته ومنزلته ، فلا تسقط له دعوه ويأتي خيره وبركته في كل حين بإذن ربه .

* ومما جاء – أيضا – في مدح المؤمن وتصويره بالخامة من الزرع وذم الفاجر وتصويره بالأَرْزة الصماء ، وقوله ﷺ :

" مَثَلُ المؤمن كمثَل الخامةِ من الزرع : من حيث أَتَتْها الريحُ كفأتها ، فإذا اعتدلت تكَفَّأ بالبلاء . والفاجر كالأَرْزة صماءَ مُعتدلة حتى يقصمها الله إذا شاء " [1] .

فتبدو براعة الاستهلال بالحديث عن المؤمن أولا من أجل إعلاء الهمة ، وأتى في جانب المؤمن بأداتي التمثيل : كـ – مثل ، ولم يأت في جانب الفاجر إلا بالكاف ، لأن فيما تقدم الدلالة والكفاية ، وقد أورد البخاري رواية أخرى للحديث :

" مثل المؤمن كالخامة .... ومثل المنافق كالأرزة .... " .

والخامة : الزرع أول نباته يكون لينا ضعيفا فرسم رسول الله ﷺ صورةَ المؤمن بتلك الفترة الزمنية من عمر الزرع ، فوضعنا أمام لوحة فنية جمعت بين خطوط الصورة الكلية ، لتخرج بصورة حية ماثلة أمام العين ، نلمس فيها ليـن الخامـة ونضارتـها وجفـاف الأرزة وصلابتها وقسوتها ، فنرى تلك السنابل الصغيرة وقد كفأتها الريح ، فمالت يمينا وشمالا حتى تقارب السقوط ، ثم تعتدل ، بينما الأرزة [2] (صورة الفاجر) صماء صلبة شديدة يقصمها الله بالهلاك .. وقد اختار النبي ﷺ الأرزة تمثيلا للفاجر ، لأنها في الغالب تشتمل على شكل جميل ومنظر بديع ولكنها قليلة النفع الغذائي أو معدومة الخير ، وهكذا حال الفاجر في مظهره وجوهره ، كما أنها – أي الأَرْزة – تتحطم إذا واجهتها الريح ، بخلاف السنبلة فهي ثابتة كثبات المؤمن وصبره عند النوازل .

---

[1] فتح الباري ١٠ / ١٠٧ .

[2] بفتح الهمزة وسكون الراء ، وقيل بكسر الهمزة ، وهو شجر الصنوبر ، والجمع : الأرز .

والحديث تمثيل لحال المؤمن وحال الفاجر ، فالمؤمن ((حيث جاءه أمر الله انطاع له ، فإن وقع له خير فرح به وشكر ، وإن وقع له مكروه صبر ورجا فيه الخير والأجر ، فإذا اندفع عنه اعتدل شاكرا ، والكافر لا يتفقده الله باختياره ، بل يحصل له التيسير في الدنيا ليتعسر عليه الحال في المعاد ، حتى إذا أراد الله إهلاكه قصمه ، فيكون موته أشد عذابا عليه وأكثر ألما في خروج نفسه)) [1] .

- هذا وقد عبّر النبي ﷺ في هذا التمثيل بلفظ (المؤمن) ، بينما عبر في الحديث السابق بلفظ (المسلم) ، وفي هذا نكتة بلاغية تطلّبها السياق ، واستلزمها المقام ..
فقد عبر بلفظ (المسلم) في الحديث السابق لأن الإسلام عمل الجوارح وأداء للأركان كما جاء في الحديث الذي سئل فيه النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان .. وعمل الجوارح ثمرة الإسلام الصحيح ، فلذلك مثله بالنخلة العالية الثابتة التي تثمر في كل حين ولا يسقط ورقها ..

أما التعبير بلفظ (المؤمن) قد جاء في مقام التمثيل بالسنبلة أو الخامة الرقيقة اللينة ، التي تتعرض لحوادث الريح ، كما يتعرض المؤمن الهين اللين لابتلاءات الله .

- ومن تصويره ﷺ للصالح والطالح قوله :
" مَثَلُ الجليس الصالح والسوء كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك إما أن يحذيك ، وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجد منه ريحاً طيباً ، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك ، وإما أن تجد ريحاً خبيثة " [2] .

فهذا تمثيل على الإجمال ثم التفصيل إثارة للأذهان والتشويق ، وهو تفصيل جاء على ترتيب الإجمال .. فحامل المسك يمثل الجليس الصالح فيكثر خيره وتعم بركته ، ونافخ الكير يمثل الجليس السوء فيكثر شره ويعم قبحه ، ولذلك حذف كلمة الجليس في جانبه استهجانا وهوانا .. وتكرار (إما) التفصيلية في سياق الحديث تعطي دلالة علي تعدد خير الصالح ،

---
[1] فتح الباري ١٠ / ١١١ .
[2] فتح الباري ٩ / ٥٧٧ .

وكثرة شر السيء ، فالحديث يحمل صورتين متقابلتين ، كل صورة تظهر ضدها في جلاء ووضوح ..

وتجدر الإشارة هنا إلي أن اختيار حامل المسك تحديدا ليمثل الصالح ، ونافخ الكير تخصيصا ليمثل السيء ، لأن مقتضى الكلام يوجه النفس إلي خطورة ذلك الجليس الذي يفيد بجلسته الدوام والاستمرارية ، وهو ما ينشأ عن المسك أو الكير ، ولذلك عبر النبي ﷺ بقوله: (الجليس) وهي صيغة للمبالغة علي وزن فعيل ، فيظهر أثر كل جليس في جليسه .. والريح الطيب يرمز إلي ريح الجنة التي يساعد الجليس الصالح علي الوصول إليها ، بينما الإحراق والريح الخبيثة ترمز إلي نار جهنم التي هي طريق الجليس السوء .

• ثانيا : بيان الفضل :

قد يعمد النبي ﷺ إلي بيان الفضل ترغيبا في فعل الخير وحثا علي طلبه ، إذا ظهر في صورة حية تموج بالحركة وتزخر بالألوان ، ومن ذلك ما قاله النبي ﷺ في بيان فضل من عَلِم وعلَّم :

" مثَلُ ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا ، فكان منها نقيةٌ قَبلَتِ الماءَ فأنبتَتِ الكلأ والعُشبَ الكثير ، وكانت منها أجَادِبُ أمسكتِ الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان [1] ، لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثلُ من فَقِهَ في دين الله ونَفَعَه ما بعثني الله به فعلم وعَلَّم ، ومَثَلُ من لم يرفعْ بذلك رأسا ولم يقبل هُدى الله الذي أرسلْتُ به " [2] .

---

(1) قيعان : جمع قاع وهي الملساء التي لا تنبت .
(2) فتح الباري ١ / ٢١١ .

المشبه : الهدى والعلم ، والمشبه به الغيث الكثير ، وعبّر عنهما بـ مثل ـ كـ ـ مثـل ، والمعني يتجسد في صورة محسوسة تزخر بالحياة والحركة في لوحة فنية جميلة ، حيث ضرب النبي ﷺ مثلاً للشريعة وما جاء به من الدين بالغيث ، فوقع الناس من ذلك علي ثلاثة أصناف:

الأول : العالم العامل المعلم ◄———— الأرض الطيبة الخصبة
أخذ الدين فأثمر العمل الصالح — أخذت الماء وشربته فأثمرت الخيرات

الثاني : العالم المعلم غير العامل ◄———— الأرض الجدباء
جمع العلم والدين ولم يثمر عملاً صالحاً — أخذت واحتفظت به علي سطحها فلم تنبت نباتاً ولا ثمراً ولكن الناس انتفعوا بالماء

الثالث : جاهل معرض ◄———— الأرض السبخة أو الملساء
لا يسمع ولا يعمل — لم تقبل ماءً ولم تنفع أحداً

فيتراءى للأعين تلك الأصناف من الناس ، ويظهر مدى نفعهم أو ضرر بعضهم ، وتظـهر اللوحة في جمال فني بديع حاملة تلك الأراضي بزينة بعضها وجدب الآخر ، وسباخ الثـالث ، فيرسخ المعني في النفوس عن طريق ذلك التمثيل الرائع ، وكأنه يخطه بيده ليرسمه في الواقـع لتعيش معه الأفهام في تجسيد قائم ..

- وكان من بلاغة هذا الحديث ما يأتي :

إيثار كلمة (الغيث) علي الماء أو المطر مثلاً للتعبير عن حاجة الناس إليـه ، فقـد جـاء ليغيثهم في وقت عصيب ، والتعبير بالعشب بعد الكلأ من باب ذكر الخاص بعد العام زيادة فـي الإيضاح والتأكيد ، فالكلأ يشمل النبات الرطب واليابس ، والعشب يطلق علي الرطب فقط .

إجمال كلمة (أرضا) وإبهامها ثم التفصيل والتوضيح من أجل ترسـيخ المعنـي وتقريبـها للأفهام .. وعبر عن الطائفتين الأوليين بقوله عن الأول : فكان منها نقية ، وقوله عن الثـاني:

وكانت منها .. بينما عبر عن الطائفة الثالثة بقوله ﷺ : وأصابت منها طائفة أخرى ثم أجمل المعني آخرا ، فجمع الطائفتين الأولبين في قوله: (فذلك مثل من فقه ..) وذلك لاشتراكهما في الخير ، بينما أفرد الطائفة الثالثة في قوله: (ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ..) لأنها طائفة مذمومة لم تنتفع ولم تنفع .

قوله ﷺ : (ومَثَلُ من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله ..) كناية عن الإعراض أو عدم الانتفاع أو النفع ، وهي ترسم صورة المُعْرِض في ذلة ومهانة حتى يظهر ذلك في خفض رأسه.

- **ومن التشبيه التمثيلي في بيان الفضائل ، ما جاء في بيان فضل المدينة المنورة في قوله ﷺ :**

" إنما المدينة كالكير ، تنفي خَبَثَها وَينصَعُ طِيبُها " [1] .

فالمعني : أنه يبقى في المدينة أصحاب الإيمان الخالص ، ويخرج من لم يكن كذلك ..[2] فهي تقوم بعملية تمحيص وتمييز للقلوب الصادقة ، فتخرج الخبيث ، كما يشتعل النار في الحديد بفعل الحداد ليميز رديء الحديد من جيده ..

أما اختيار (الكير) ليكون المشبه به ، ففيه تصوير بديع يقوم بتمثيل حال المدينة في صورة قوية تنفي الخبيث في شدة ، كما ينفي الكير خبث الحديد ، فيبقى الطيب الناصع .

ثالثا : بيان الصفة ومقدارها أو الحالة لتقريبها للأفهام :

لما أراد النبي ﷺ بيان مقدار النبوة الخاتمة ومكانة الشريعة المتممة جاء بصورته البيانية الآتية متمثلة في التشبيه التمثيلي .

---

[1] فتح الباري ١٣ / ٢١٣ .

[2] قيل : إن هذا مختص بزمن النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وقيل : إنه مختص بزمن الدجال ، وقيل : يحتمل الزمانين ، ((وقد خرج من المدينة بعد النبي (صلي الله عليه وسلم) معاذ وأبو عبيدة وابن مسعود وطائفة ثم علي وطلحة والزبير وعمار وآخرون وهم من أطيب الخلق ، فدل علي أن المراد بالحديث تخصيص ناس دون ناس ووقت دون وقت . فتح الباري ٤ / ١٠٦)) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : " **إن مَثلي ومثَل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتًا فأحسنه وأجمله ، إلا موضعَ لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وُضعت هذه اللبنة ؟ قال : فأنا اللبنة ؛ وأنا خاتم النبيين** " (١) .

فتبدو الصورة مجسمة في ذلك البناء من حيث حسنه وجماله إلا ذلك الفراغ الناشيء في تلك الزاوية من زواياه نتيجة غياب مقدار لبنة واحدة .. ثم تبدو الحركة الممتزجة برسم الدهشة والتعجب في طواف الناس من أجل ذلك المشهد ..

والمشبه به واحد والمشبه جماعة ، لأنه جعل الأنبياء كرجل واحد (لأنه لا يتم ما أراد من التشبيه إلا باعتبار الكل ؛ وكذلك الدار لا تتم إلا باجتماع البنيان ، فكأنه شبه الأنبياء وما بعثوا به من إرشاد الناس ببيت أسست قواعده ورفع بنيانه وبقي منه موضع به يتم صلاح ذلك البيت فالمراد هنا النظر إلي الأكمل بالنسبة إلي الشريعة المحمدية مع ما مضى من الشرائع الكاملة)(٢) .

والتمثيل في الحديث قد حمل — أيضا — أداتين للتشبيه : (كـ — مثل) ، وفيه دلالة علي أهمية الرسالة الخاتمة ودورها في الكمال الذي تمت به الشرائع ، وتأكيدا علي ذلك فقد استهل الكلام بالتوكيد بـ — : (إن) والبداية بالكلام عن شخصه ﷺ أولا ، فلم يقل : مثل الأنبياء من قبلي ومثلي .. مع أن ذلك هو مقتضى السياق بالنظر إلي الترتيب الزمني ، ومجيء الأنبياء قبل النبي محمد ﷺ في تلك المرحلة الزمانية ، وفي هذه البداية إثارة ذهنية ولفت للانتباه إلي محور الكلام وهدفه .

– وعلي الجانب الآخر يضرب النبيﷺ تمثيلا رائعا ، يبين فيه حالة المرأة وما تنطوي عليه من أحوال ، وذلك من أجل توضيح عالمها النسائي الإنساني للرجل ، فتدوم العشرة بالمعروف بينهم .

---

(١) فتح الباري ٦ / ٦٤٥ .

(٢) فتح الباري ٦ / ٦٤٥ .

يقول النبي ﷺ : " **المرأةُ كالضِّلَع : إن أقمتها كسرتها ، وإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوَج** " [1] .

يقال : في العود عَوَجٌ ، وفي الرأي عِوَجٌ [2] . والعَوَج : الانعطاف فيما كان قائما فمال كالرمح والحائط ، والعِوَج في الأرض : أن لا تستوي ، عِوَجِ الطريق وعَوَجه : زَيْغُه . وعِوَج الدين والخُلُق : فساده [3] .

وضلع الشيء : اعوج حتى صار كالضلع ، وتمثيل المرأة به علي الإبهام ثم الشروع في التفصيل ، بأنه لا يستتيم فيه بيان واف لأغوار النفس ومكنونها .. فتذهب النفس مذهبها في التخيل ورؤية هذا الضلع باعوجاجه ، ونري من يذهب منطلقا إلي الضلع ليجتهد في إقامته وإصلاح عوجه ، فإذا هو قد كسره (كناية عن سوء العشرة وطلاقها) ..

وشأن من يواجه الشيء الصلب في طريقه ولا يستطيع له شيئا أن يتصرف معه بحكمه فيتخطاه دون جهد ، وذاك مداراة الرجل لزوجه لتستقيم الحياة . ولعل الحكمة في اختيار التشبيه بالضلع دون سائر الأشياء الحسية المحيطة بالإنسان في الكون : أن الضلع يمثل الصلابة والشدة ، والضلع مع صلابته وقوته واعوجاجه يعيش بداخل كل إنسان ، فهو يشتمل علي أربعة وعشرين ضلعا ، وهو مع ذلك يعيش معها ولا يفارقها فتضطرب حياته ..

بقي أن نشير إلي لفتة بلاغية في كلام النبوة السابق ، حيث بدأ تشبيه المرأة بالضلع ، وهو شيء حسي قائم كالعود والرمح وما إلي ذلك ، فكان مقتضى السياق أن يأتي ختام الحديث بقوله: (وفيها عوج) بفتح العين لا بكسرها ، وفي ذلك إشارة إلي هذا العوج المعنوي المجبولة عليه .

---

(1) فتح الباري ٩ / ١٦١ .

(2) الزمخشري _ أساس البلاغة _ الهيئة العامة لقصور الثقافة _ القاهرة _ ص ١٤٥ .

(3) ابن منظور _ لسان العرب _ دار الكتب العلمية _ بيروت _ مادة : عوج .

• رابعا : إزالة غرابة المشبه وإبرازه :

وربما جاء التشبيه التمثيلي في البيان النبوي لإزالة غرابة المشبه وإبرازه في صورة واضحة مما تعارف عليه الناس في حياتهم ومجتمعاتهم ، ومن ذلك قوله ﷺ :

" تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده كما يكفأ أحدُكم خبزتَه في السفر نزلا لأهل الجنة .. " [1] .

• وقوله ﷺ :

" يُحشر الناسُ يوم القيامةِ علي أرض بيضاءَ عَفراءَ كقُرصَةِ نَقِيٍّ ليس فيها مَعْلَمٌ لأحَدٍ " [2] .

فصورة الخبزة وهي تتحرك في انقلاب بين يدي الخباز صورة معروفة مألوفة ، فاتخذها النبي ﷺ تمثيلا لحركة قلب الأرض في خاصيتها ، ويستفاد منه ((أن المؤمنين لا يعاقبون بالجوع في طول زمان الموقف ، بل يقلب الله لهم بقدرته طبع الأرض حتى يأكلوا منها من تحت أقدامهم ما شاء الله بغير علاج ولا كلفة)) [3] .

وفي الحديث الثاني نجد الأرض هي المشبه ، ولكن المشبه به هذه المرة ليس خبزا يكفأ علي وجه السرعة إعدادا للمسافر ، وإنما المشبه به هو : ((قرصة نقي)) أي الدقيق النقي من الشوائب ، فتبدو صورة هذا الدقيق في نصوعه وبياضه تتراءى أمام العين ، وقد اختار النبي ﷺ هذا التشبيه بالذات ، لأنه بدأ الحديث بالكلام عن الحشر وصفة أرضه ، فأراد إزالة غرابة شكلها الغيبي بتمثيل نقاء الدقيق وصفائه ، وفي هذا تناسب دقيق بين هذا النقاء والبياض وما يقع في أرض المحشر من الحق والعدل وصفاء الحكم ونقاء القضاء ، وفيها — أيضا — رسم لصورة تلك الأرض من النقاء والطهارة ، فهي أرض منزهة عن اقتراف الآثام وارتكاب المعاصي ..

---

[1] فتح الباري ١١ / ٣٧٩ .

[2] نفسه .

[3] فتح الباري ١١ / ٣٨١ .

ومن هنا تبرز بلاغة التشبيه من أنه ينتقل بنا ((من الشيء نفسه إلي شيء طريف يشـــبهه ، أو صورة بارعة تمثله ، فكلما كان هذا الانتقال بعيدا قليل الخطور بالبال ، أو ممتزجا بقليـل أو كثير من الخيال ، كان التشبيه أروع للنفس وأدعى إلي إعجابها واهتزازها)) [١] .

- وفي مشهد من مشاهد القيامة يستعين النبي ﷺ بالتمثيل لإزالة غرابة المشبه ــ أيضــا ــ وذلك عندما يتحدث عن ذبح الموت ، ليخلد أهل الجنة في جناتهم ، وليخلد أهل النار ــ عيــاذا بالله ــ في نارهم ، يقول ﷺ :

" يُؤتى بالموت كهيئة كبش أملح ، فينادي منادٍ يا أهل الجنة ... " [٢] .

فالموت يقع بين الناس في كل لحظة ولا يراه أحد ، ولا يستطيع أحد أن يتخيل له شــكلا أو مظهرا ، فإذا أراد النبي ﷺ إخبارنا بفنائه يوم القيامة ، فقد أتى بهذا التشبيه إزالــة للغرابــة تقريبا للأفهام ، ويختاره النبي ﷺ لهذا الوصف (أملح) لاشتماله علي البيــاض والســواد ، وهما صفتا أهل الجنة والنار ، بينما الكبش يوحي بالفداء ويرمز إليه .

وهذه القصة النبوية التي تجسم تلك الشخصية المعنوية ، قد أدت دورا كدور الشخصيات مــن البشر ، مما أسهم بجلاء في إبراز الموقف بأبعاده ومهابته .

- ويصور النبي ﷺ مشهدا حيا من مشاهد النار وهو نوع عجيب يحتاج إلي تمثيل حــي لإزالة غرابته ، حيث يعاقب صنف من الناس قد حاد عن الصواب وإن كان من الداعية إليــه ، يقول :

" يُجاءُ بالرجل يوم القيامة فيُلْقَي في النار ، فتَنْدلِقُ أقتَابُه في النار ، فيــدور كمــا يدور الحمارُ برحاه ، فيجتمع أهل النار عليه فيقولون : أي فلان ما شأنك ؟ أليــس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ قال : كنتُ آمرُكم بالمعروف ولا آتيــه ، وأنهاكم عن المنكر وآتيه " [٣] .

---

[١] الهاشمي ــ جواهر البلاغة ــ دار ابن خلدون ــ الإسكندرية ــ ص ٢٢٧ .
[٢] فتح الباري ٨ / ٢٨٢ .
[٣] فتح الباري ٦ / ٣٨١ .

فالتصوير في الحديث (تصوير حي منتزع من عالم الأحياء ، لا ألوان مجردة وخطوط جامدة . تصوير تقاس الأبعاد فيه والمسافات ، بالمشاعر والوجدانات ، فالمعاني ترسم وهي تتفاعل في نفوس آدمية حية ، أو في مشاهد من الطبيعة تخلع عليها الحياة) [(١)] .

وتتفاعل خطوط اللوحة في ذلك المشهد تفاعلا سريعا متلاحقا ، حيث يبدأ المشهد بحركة المجيء التي ارتسمت عليها المهابة وأخذ النفوس من جراء بناء الفعل للمجهول (يجاء) ، فما يلبث أن يلقى في النار ، كما دلت الفاء التي قامت بهذا الدور المتلاحق ورسم سرعته في كل أجزاء المشهد : فتندلق (والكلمة ذاتها تدل علي سرعة خروج الشيء من مكانه) .. فيدور .. فيجتمع .. فيقولون ، ثم يخرج الحوار من بطن المشهد ليقرر أن الجزاء من جنس العمل ، فقد وضع الله ــ تعالي ــ لكل تكليف في الدنيا ما يقابله من ثواب أو عقاب في الآخرة ..

- وتأتي بلاغة التصوير المنتزعة من أكثر من متعدد لتجمع خطوط الصورة وأجزاء اللوحة بعضها إلي بعض في مشهد متكامل ، وقد (اختير له صنف من أصناف العذاب يجمع عليه الناس لما يرون به من البلاء ، ويعجبون من وجوده بينهم وكان في الدنيا ينهاهم عن المنكر ويحببهم في المعروف ، وليس له شغل الآن غير أن يجمع أمعاءه ويدور معها ــ وهي تفور من بين يديه ــ كما يدور الحمار بالرحى) [(٢)] .

- وقد يأتي التشبيه التمثيلي في الكلام النبوي لبيان أجر أهل الجنة أو شيء من نعيمهم ، أو لبيان عقوبة أهل النار أو شيء من عذابهم ، والأول مثاله قول النبي ﷺ :

" إن أهل الجنة يتراءَيون أهل الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدُّرِّيَّ الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب ، لتفاضل ما بينهم " قالوا : يا رسول الله : تلك منازل الأنبياء ، لا يبلغها غيرُهم قال : " بلي ، والذي نفسي بيده ، رجال آمنوا بالله ، وصدَّقوا المرسلين " [(٣)] .

[(١)] سيد قطب ــ التصوير الفني في القرآن ــ ط ١٢ ــ دار الشروق ــ القاهرة ــ ١٩٩٣ ــ ص ٣٥ .

[(٢)] د. أحمد عبد الله العلي ــ مشاهد القيامة في الحديث النبوي ــ ط ٢ ــ دار الوفاء ــ المنصورة ــ ١٩٩٢ ــ ص ٢١٨ .

[(٣)] فتح الباري ٦ / ٣٦٨ .

فوقع التمثيل في قوله ﷺ : (كما يتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق ..) فهي صورة منتزعة من حياة القوم تعمل على الارتقاء بالنفس إلى الآفاق العليا حيث تعلو الهمم وتعلو معها درجات المؤمن في جنات ربه ، وهي صورة تجسد للسامع الغيبيات في هيئة يراها ويتحسسها بكل جوارحه .. والتعبير بـ (يتراءيون .. كما يتراءون) فيه تجسد لحركة الموقف، وأن الرؤية تأتيهم طواعية دون عناء أو مشقة ، ثم مثل سهولة الرؤية بما يمارسه القوم في حياتهم المألوفة من رؤية الكوكب العظيم ..

على أن اختيار نوعية المشبه به تتناسب مع جو المشهد وطبيعة الموقف ، فلم يشبه مثلا برؤية أهل البيت أو من خلال ممارسات حياتهم الأرضية ، وإنما علا بهم إلى السماء واختار الكوكب الدري الذي يعرف ببياضه وإضاءته ، وقيل لكونه أرفع من باقي النجوم ، وهي كلها صفات تزين أهل الجنة ويعرفون بسمتها .

• خامسا : الحث والترغيب أو التحذير والترهيب :

وفي مواضع أخرى يأتي التشبيه التمثيلي في كلام النبوة مستخدما مشاهد البيئة وواقع المجتمع ، من أجل الحث والتحضيض على فعل شيء والترغيب في العمل به ، أو من أجل الترهيب من فعل شيء والتحذير من عمله .

ومن ذلك قوله ﷺ :

" مثَلُ القائم على حدود الله والواقع فيها كمثَلِ قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مَرُّوا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنا خرقْنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا ، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا ، وإن أخذوا على أيديهم نَجَوا ونَجَوا جميعاً " [1].

فوضع فريقي البشر في مواجهة حاسمة عن طريق هذا الاستهلال بالمقابلة اللفظية والمعنوية ، فهيأ الذهن لاستقبال فحوى الحديث وحدثه ، وهي المقابلة التي ختم بها الحديث

[1] فتح الباري ٥ / ١٥٧ .

أيضا لتتفق البداية مع النهاية ثم كان هذا التشبيه التمثيلي الدقيق الجامع المانع الذي وضع البشرية في سفينة الحياة ، فإما نجاة أو هلاكا ، " وتدل هذه الصورة العظيمة علي أن الحرية الفردية ليست مطلقة ، بل هي محدودة بمصلحة الأمة ، فليس المرء حرا في أن يصنع ما يشاء من المعاصي ، لأن ذلك سيعرض كيان الأمة إلي الهدم والانهيار ، كما تدل علي أن فائدة الإنكار إنما تتحقق إذا كانت قبل استفحال المعاصي " [1]

فهذا ((تمثيل لحالة طائفة في (الأسفل) تعمل لرحمة من هم في (الأعلى) : عاطفة شريفة ولكنها سافلة ، وحمية ملتهبة ولكنها باردة ، ورحمة خالصة ولكنها مهلكة ؛ ولن تجد كهذا التمثيل في تصوير البلادة الاجتماعية والغفلة الفلسفية لأناس هم أنفسهم أمثلة الجد والعمل والحكمة)) [2] .

> ومما جاء من التشبيه التمثيلي من أجل الحث علي استذكار القرآن والترغيب في تعاهده قوله ﷺ : " **إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعلَّقة ، إن عاهد عليها أمسكها ، وإن أطلقها ذهبتْ** " [3] .

فإن كلمة (صاحب) تفيد المصاحبة ودوام الألفة ، ويدل تكرارها علي ذلك ، فإن الرجل إذا دامت مصاحبته لإبله ، دامت الألفة بينهما ، فلا تنفر منه .. وقد رسم النبي ﷺ تلك الحالة من التآلف بين الإنسان والقرآن بطول التعاهد والمدارسة ، بحالة صاحب الإبل في ذهابه ومجيئه وحرصه علي إمساك إبله بالعقال المشدود ، وكيف إذا فرط في عقالها .. فالحفظ دائم مادام التعاهد موجودا ، كما أن البعير محفوظ مادام مشدودا بالعقال .

• ومما جاء من التشبيه التمثيلي من أجل الترهيب من المعصية والتحذير من الوقوع فيها قوله ﷺ :

---

[1] د. محمد الصباغ ـ التصوير الفني في الحديث النبوي ـ ط1 ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ ١٩٨٣ ـ ص ٤٢٨ .

[2] الرافعي ـ وحي القلم ـ ص ٧ .

[3] فتح الباري ٨ / ٦٩٧ .

" إنما مَثَلي ومثلُ الناس كمثل رجل استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حولــــه ، جَعَــلَ الفَراشُ وهذه الدوابُّ التي تقعُ في النار يقعن فيها ، فجعل الرجل يَزَعُهنَّ ويغلبنــــه فيقتَحمن فيها فأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تقتحمون فيها " [1] .

فالمشهد يحمل لوحة فنية زاخرة بالألوان وحركة النــار واضطرابــها وطـيران الفــراش والدواب ، وتفاعل الصراع بين الخير والشر المتمثل في الدفع عن النار ومغالبة الاقتحام فيها .

وقد شبه النبي ﷺ الشريعة الإسلامية وتبليغها للناس باستنقاذهم من النار ، وشبه انتشـــار ذلك في الأرض بإضاءة تلك النار ما حول المستوقد ، وشبه إعراض الناس عن الشرع والديـن وانكبابهم علي غيهم ومنعه اياهم عن ذلك بأخذ حجزهم بالفراش والدواب التي تقع في النـــار ، وتغلبن المستوقد علي دفعهن عن الاقتحام ..

فكما أن ((المستوقد كان غرضه من فعله انتفاع الخلق به من الاستضاءة والاستدفاء وغـير ذلك ، والفراش لجهلها جعلته سببا لهلاكها ، فكذلك كان القصد بتلك البيانـــات اهتـداء الأمـة واجتنابها ما هو سبب هلاكهم ، وهم مع ذلك لجهلهم جعلوها مقتضية لترديهم)) [2] .

- وقد جاء الكلام في بداية الحديث الشريف مجملا ثم فصّل بعد ذكر المشـــبه بـــه ، فجـاء التمثيل علي سبيل اللف والنشر المرتب ، وهو ما يعرف بالتشبيه الملفوف .

• ومن بلاغة هذا الحديث الشريف :

- البدء بأسلوب القصر (إنما) للتوكيد علي المعني ، وهو الأسلوب المقتضي للمعني والسياق .
- الإيقاع الموسيقي لتكرار : مثلي ومثل ــ كمثل ، وهذه الأدوات بتكرارها وتلاحقـــها مـــن شأنها ــ أيضا ــ أن تصنع جوا من التخيل والتمثيل في صورة حية .
- قوله ﷺ : (ومثل الناس) ليشتمل كل الناس ويعمهم بدعوته ، إذ إنه لم يرسل لفئة خاصة.

---

(١) فتح الباري ١١ / ٣٢٣ .

(٢) المصدر السابق ١١ / ٣٢٦ .

• قوله ﷺ : (فلما أضاءت) ولم يقل : فلما اشتعلت . لأن الضياء والإضاءة : فرط الإنـارة وهي المناسبة للمقام للإيحاء بنور النبوة وضياء الشريعة .

• فيقتحمن : توحي بسرعة تهافت الجهلاء في معاصيهم وإصرارهم علي غيهم .

• قوله ﷺ : (فأنا آخذ بحجزكم) فيه التفات من الغيبة (مثل الناس) ـــ وضمير الغائب في (يزعهن ـــ يغلبنه) إلي الخطاب في قوله : (بحجزكم) .. وقوله (آخذ بحجزكم) علــي سبيل الاستعارة المكنية ، حيث مثل حالة منعة الأمة عن الوقوع في الــهلاك بحالــة ذلـك الرجل الذي يأخذ بحجزه صاحبه لكي يمنعه ويحميه من الهلاك .

فهذه البلاغة النبوية العجيبة قائمة علي حسن الاختيار ودقة التوجيه لإدراك المعـــاني فــي وضوح وإيجاز ، وهي ((المثل الأعلى للبلاغة العربية ، إذا كان كلام الله (كتـــاب) البيـان المعجز ، فإن كلام الرسول ﷺ (سنة) هذا البيان وإذا كان البلاغ صفة كل رســول ، فــإن البلاغة صفة محمد ﷺ وحده)) [1] .

• وربما ساق النبي ﷺ التشبيه التمثيلي من أجل الإرشاد والحض علــي محاســبة النفـس والترغيب في زيادة الإيمان والترهيب من الاستهانة بالمعصية .

يقول ﷺ :

"" إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليـــه ، وإن الفـــاجر يرى ذنوبه كذباب مرَّ علي أنفه فقال به هكذا ـــ قال أبو شهاب بيده فوق أنفه ـــ ثم قال : لله أفرح بتوبة العبد من رجل نزل منزلا وبه مهلكه ومعـــه راحلتُـــه عليـــها طعامه وشرابه ، فوضع رأسه فنام نومة ، فاستيقظ وقد ذهبت راحلتُه حتى اشـــتدَّ عليه الحَرُّ والعطش أو ما شاء الله ، قال أرجعُ إلي مكاني ، فرجع فنام نومـــةً ثـــم رفع رأسه فإذا راحلتُه عنده "" [2] .

---
[1] أحمد حسن الزيات ـــ وحي الرسالة ـــ ط ٥ ـــ نهضة مصر ـــ القاهرة ـــ ١٩٦٤ ـــ جـ ٣ ـــ ص ١٠٥ .
[2] فتح الباري ١١ / ١٠٥ .

فذكر الحديث في المشهد الأول فريقين من الناس : المؤمن والفاجر ، فشبه الذنوب بالجبل الشاهق العظيم والمؤمن ينظر إليه في فزع خشية أن يقع فوق رأسه فيهلكه .. وعلي النقيض من ذلك شبه ما يراه الفاجر من ذنوبه بالذباب ، فلا يبالي به بل يصرفه دون تورع أو مبالاة .

وشبه فرحة الله بتوبة العبد بفرحة رجل أوشك علي الهلاك في الصحراء بعد أن ضلت عنه راحلته ، وفقد الأمل في النجاة ، ثم هو تتجدد له الحياة برجوع راحلته فتأخذه النشوة وتتملكه الفرحة ..

وقد ذكر النبي ﷺ الجملتين المؤكدتين : (إن المؤمن ــ وإن الفاجر) ، وكرر الأداة ليفصل شخصية كل واحد منهما عن الآخر ، فتبرز نظرتهما إلي المعصية في وضوح وانفصال ((والعطف بينهما للتوسط بين الكمالين ، حيث عطف الجملة الخبرية علي مثلها ، والحسن في تركيب الجملتين ظاهر ، حيث نرى اسم إن في الجملتين معرفة ، والخبر جملة فعلية فعلها مضارع . وفي قوله : (لله أفرح بتوبة العبد) تأكيد لمعني تقبل الله لتوبة عبده باللام ، واسمية الجملة ، وأفعل التفضيل ، والتعبير باسم المرة في قوله : (نام نومة) يدل علي أن الغفلة ولو مرة واحدة مما ينبغي علي الإنسان مراعاته وتجنبه)) [1] .

- وقد جاء التمثيل في المشهد الثاني بصيغة : (أفعل من) وهذا مما تنفرد به اللغة العربية دون اللغات السامية الأخرى ، وهذا التعبير أليق بهذا المقام وذاك المشهد ، وقد ((جرت عادة العرب علي المبالغة في وصف الشيء)) واستخدموا لذلك صيغة (أفعل) لتعبر لهم عن ذلك ، وهي صورة من صور المبالغة فاشتهر عندهم من الأمثال قولهم : (أكرهم من حاتم .. أشأم من داحس) [2] .

- وقد جاء التشبيه التمثيلي في البيان النبوي من أجل الترغيب في أدائها والحث علي المحافظة عليها .

---

(1) د. عبد القادر حسين ــ من بلاغة النبوة ــ ط ٣ ــ دار الثقافة ــ الدوحة ــ ١٩٨٦ ــ ص ٥٥ .

(2) د. أحمد محمد العلي ــ مشاهد القيامة في الحديث النبوي ــ ص ٤٠٩ .

؟ يقول ﷺ :

"" أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمساً ، ما تقول ذلك يُبقـي من درنه ؟ قالوا : لا يُبْقى من دَرَنِه شيئاً . قال : فذلك مَثَل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا "" [1] .

فقد أكدّ علي أدائها وجعل المعقول كالمحسوس وشبه علي جهة التمثيل ، حال مـن يحـافظ علي أداء الصلوات الخمس ويقع في صغائر الذنوب ، فيظهر من ذلك القذر الإثمي بفعله لتلـك الصلوات ، بحال من كان علي باب بيته نهر ، فيقوم بالاغتسال فيه كل يوم خمـس مـرات ، فتزول عنه الأوساخ ويصبح نقي البدن ، " ومن التناسق الفني الجميل في الحديـث أن يجعـل المعصية وسخا ودرنا تتقزز النفس السوية منه وتنفر ، والصلوات الخمس كنهر جار يغتسل فيه المرء خمس مرات كل يوم .. " [2] .

– وقد بدأ الحديث الشريف في بيانه بتقديم المشبه به في صورة واضحة جلية تظهر الـهدف والمقصود منه ، وقد ساعد ذلك علي نقل الخيال إلي واقع حسي مشاهد ، وقد زاد من ذلك البدء بهمزة الطلب والمجيء بفعل الرؤية البصرية (أرأيتم) ، وفي ذلك تهيئة للمتلقـي ((ليجمـع شتات ذهنه ، ويخلص سمعه وعقله لكل ما يلي ذلك ، فهمزة الاستفهام هنـا لـها وظيفتـان ، إحداهما مادية حددها البلاغيون بأنها طلب الفهم من السامع ، والثانية معنوية يجدها المتأمل فـي البيان المتذوق له وهي تنبيه المتلقي وتهيئته لتلبية المطلوب له)) [3] .

فهذا التصوير الفني في البيان النبوي يبلغ أعلي درجات الإثارة الذهنية والاسـتحواذ علـي الجنان ، وذلك بمخاطبة حواس الإنسان وإظهار جزئيات الصورة ومحاسنها في هيئة ملموسـة بالجوارح ، تاركة أثرها العميق في النفس والقلب ، فيعمل هذا التخيـل الحسـي علـي جعـل الحقائق أشد قربا للإنسان .

---

[1] فتح الباري ٢ / ١٤ .

(٢) د. محمد الصباغ ــ التصوير الفني في الحديث النبوي ــ ص ٣٠٠ .

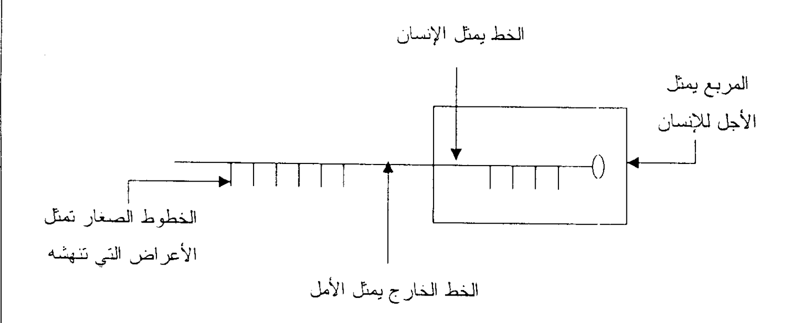
(٣) د. إبراهيم عوضين ــ تأملات في البيان النبوي ــ ط ١ ــ مطبعة السعادة ــ القاهرة ــ ١٩٨٠ ــ ص ٣١ .

- ومما جاء في التحذير من طول الأمل والترهيب والزجر عن الانهماك في ملاذ الدنيـــا ، قول عبد الله رضي الله عنه :

" خط النبي ﷺ خطا مربعا ، وخط خطا في الوسط خارجا منه ، وخط خططا صغـــارا إلـــي هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط وقال : هذا الإنسان ، وهذا أجله محيط بـــه — أو قد أحاط به — وهذا الذي هو خارج أمله ، وهذه الخطط الصغار الأعراض ، فإن أخطأه هـــذا نهشه هذا ، وإن أخطأه هذا نهشه هذا " [١] .

فقد اتخذ النبي ﷺ من الرسم الهندسي وسيلة للتصوير ، وهو بـــدوره وســـيلة لتجســـيد المعني وبيانه في بساطه ووضوح ، فيظهر الإنسان وهو في معركة الحياة محاصراً بين الآفات إن سلم من آفة لم يسلم من أخرى ، ولذا كان التعبير بقوله : " نهشه هذا .. نهشه هذا " يـــؤدي دورا فعّالا في تصوير المعني وتجسيده في صورة أفعى تلدغ وتنهش ، مبالغـــة فـــي تصويـــر الإصابة والإهلاك .

- ومن صفة هذا الخط :



وقد جمع الخطوط ثم اقتصر في التفصيل علي اثنين اختصارا ، والثالث الإنسان ، والرابـــع الآفات [٢] .

---

[١] فتح الباري ١١ / ٢٣٩ .

[٢] المصدر السابق ١١ / ٢٤٢ .

• ثالثا : الخصائص الفنية للتشبيه النبوي التمثيلي :

كان النبي ﷺ أبلغ العرب ، وهو أفصح من نطق بالضاد ، لا يجاريه في ذلك أحد من الخلق ، وقد عاش بهذا البيان الأكمل بين عمالقة البلاغة وأرباب الفصاحة الذين أتوا القدرة العليا علي التصرف في تراكيب اللغة ومفرداتها ، فلا تعجزهم عبارة ، ولا تحيرهم كلمة ، وهم علي الرغم من ذلك يبهتون أمام بيانه ، ويفحمون من منطقه .

ولم يسمع أحد بيانه ﷺ ((إلا وأخذ بروعته ، وطربت نفسه لبلاغته ، فإنه ليستعيد الحديث مرات فيحلو في ذوقه ، ويتدبره فيزداد إعجابا به لما يحويه من معان لا يتضمنها قول بليغ لو أجهد نفسه وعناه ، وإنها لسليقة تفيض بينابيعها هذا البيان المعجز والقول الرصين والعبارة الحلوة والديباجة الموشاة)) [1] .

• اللغة والأسلوب :

إن لغة البيان النبوي تسمو إلي الكمال الخالص من أسباب الضعف البشري ، الخالي من الاضطراب أو التشدق والتكلف ، وكيف يفعله وهو الذي ذمه في قوله ﷺ :

" **إن أبغضكم إليّ وأبعدكم مني مجالس يوم القيامة أساوئكم أخلاقا ، والثرثارون المتشدقون المتفيهقون** " .. حديث حسن ؛ رواه الإمام أحمد .

– وقوله ﷺ : " **إنَّ اللهَ يُبغض البليغ من الرجال الذي يَتَخَلَّلُ بلسانه كما تتخلَّلُ البقرة** " .. حديث حسن . رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي .

فكانت ألفاظه ﷺ مأنوسة ((إلا حين يقتضي المعني لفظا يناسبه فيختار الرسول اللفظ الأقل ألفة ، ولكنه ينأى عن الغريب الوحشي ، وعن السوقي المبتذل ، وألفاظه جزلة حين

---

[1] د. أحمد العلي – مشتهد القيامة في الحديث النبوي – ص ٢٨٩ .

يقتضي المعني الجزالة ، رقيقة حين يتطلب المعني الرقة ، وفي الحالتين هي واضحة الدلالـــة علي معانيها ، كل كلمة تعبر بدقة عن تمام معناها ، مستقرة في مكانها من الجملة)) [١] .

- ونقف مع حديث للنبي ﷺ يتحدث فيه عن رفع الأمانة من القلوب وقد ورد فيه التشـــبيه التمثيلي مؤلفا من كلمات لها دلالات وإيحاءات من شأنها أن تضع السامع أمام مشهد حقيقي .

• قال ﷺ:

"" .. ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر الوَكْت . ثـــم ينام النومة فتُقبض ، فيبقى أثرها مثل المَجْل ، كجمر دَحْرَجَته علي رِجلك فَنفِـــط ، فتراه مُنتَبرا وليس فيه شيء . فيصبحُ الناس يتبايعون فلا يكـــاد أحدُهـــم يـــؤدى الأمانة ، فيقال : إن في بني فلان رجلا أمينا . ويقال للرجل ما أعقله وما أظرفـــه وما أجلده ، وما في قلبه مثقال حبة خَرْدَل من إيمان .. "" [٢].

فالأعمال السيئة لا تزال تضعف الإيمان ، حتى إذا تناهى الضعف لم يبق إلا أثر الإيمـــان ، وهو التلفظ باللسان والاعتقاد الضعيف في ظاهر القلب ، فشبهه بالأثر في ظاهر البدن ، وكنـــى عن ضعف الإيمان بالنوم ، وضرب مثلا لزهو من الإيمان عن القلب حالا بزهو مـــن الحجـــر عن الرجل حتى يقع بالأرض ، والوكت سواء في اللون ، وكذا المجل أثر العمل فـــي اليـــد ، والمنتفط هو المنتبر ، يقال : انتبر الجرح وانتفط إذا ورم وامتلأ ماء [٣] .

فرسم النبي ﷺ المشهد عن طريق تلك الكلمات المختارة لتعبر عن المعني في قوة وجلاء فعبر عن ضعف الإيمان بالنوم والنوم فيه الغفلة والغيبة عن الواقع .. وعبر عن رفع الأمانـــة بقوله : (فتقبض) فيتصورها الإنسان في هيئة حسية أو مادية .. ثم عمل علي إثـــارة الذهـــن بتلك المقابلة الخفية بين : [ينام الرجل النومة ..] وبين : [فيظل أثرها ..] ، لأن ظل تعنـــى النهار وما يتخلف علي صاحبه من سواد وأثر العمل في اليد .

[١] د. علي العماري ــ بلاغة الرسول ﷺ ــ دار الأنصار ــ القاهرة ــ ص ٢٣ .
[٢] فتح الباري ١١ / ٣٤١ .
[٣] فتح الباري ١٣ / ٤٣ ــ ٤٤ .

((والنتيجة اللافتة لهذا هو تحريك وعي المتلقي وتنشيط ذهنه لما بين الأشياء من تقابل أو تضاد فيقبل علي البليغ في يقظة شعورية لفهم المضمون المعبر عنه من خلال الصيغ المثيرة للانتباه والداعية إلي التأمل)) [1] .

– ولم يكن يعبر عن سرعة أثر الفعلة وقصر وقتها غير التعبير باسم المرة (النومة) ولذلك جاء بقاء السرعة في الموضعين (فتقبض) ، وهي الفاء التي تكررت في هذا المشهد سبع مرات فساعدت علي رسم سرعته .

– ورسم مشهدا حسيا فيه طبيعة الحركة وشد إحراقها في قوله ﷺ : (كجمر دحرجته علي رجلك فنفط فتراه منتبرا ..) ، فنفط وانتبر ترسمان صورة التورم في مشهد حسي منفر ، لا تعبر عنه كلمة تورم الجرح أو انتفخ مثلا ، ((إنه كلام كلما زدته فكرا زادك معنى)) [2] .

وينتقل المشهد في ترتيب يتصاعد بخيال السامع من الأقل إلي الأكثر ، فذكر أولا أثر الوكت ، وهو الأثر اليسير من فعل النار .. ثم انتقل إلي الأكثر (مثل المجل) ، وهو غلظ الكف من أثر العمل ، ثم إلي الجمر المدحرج .

وهو في ذلك أتى من الأفعال ما يناسب كل مرحلة ، ففي الأولي (فيظل) ، وفي الثانية (فيبقي) وفي الثالثة (فتراه) .. ثم المشهد المترتب علي ما سبق ثمرة ونتيجة ، فعبر عنه بقوله ﷺ : (فيصبح) ، فكان ما سبق هو ما اعترك فيه الرجل في ليل طويل مليء بظلام الفتن ، فكان هذا صباحه ، فالكلمات والجمل " إذا نظمت ورتبت ذلك الترتيب المعين ، سرت فيها الحياة وعبرت عن مكنون الفكر وما يدور في الأذهان ، وليست اللغة في حقيقة أمرها إلا نظاما من الكلمات التي ارتبط بعضها ببعض ارتباطا وثيقا ، تحتمه قوانين معينة لكل لغة " [3].

– ومن تتميم المشهد قوله ﷺ : (فيقال : إن في بني فلان رجلا أمينا) ، فهذا التقديم لخبر إن فيه إثارة واهتمام بشأن القبيلة كلها ، فهي تخلو تماما من الأمين إلا رجلا ، فكيف

---

(1) د. عبد الفتاح عثمان – دراسات في المعاني والبديع – القاهرة – مكتبة الشباب – القاهرة – ص ٢١٢ .

(2) وحي القلم ٣ / ٨ .

(3) د. إبراهيم أنيس – من أسرار اللغة – ط ٦ – الأنجلو المصرية – القاهرة – ١٩٧٨ – ص ٢٩٥ .

يكون حالها ؟! فهذا التحريك للكلمات من مكانها إنما يساعد علي صنع هذا الخيـــال ، فـــإن ((الجملة العربية لا تتميز بحتمية في ترتيب أجزائها ، وبرغم ذلك ترك لنا النحـــو رتبـــا تحفــظ بالنسبة لهذه الأجزاء ، والعدول عن هذه الرتب يمثل نوعا من الخروج عن اللغة النفعيـــة إلـــي اللغة الإبداعية)) [١] .

• ومن توظيف اللغة والأسلوب في التمثيل ، قوله ﷺ :
" إنما الناس كالإبل المائة لا تكاد تجد فيها راحلة " [٢] .

صورة منتزعة من البيئة ، ومن خصوصيات العرب وما تعارفوا عليه في حمـــل أثقالـــهم ومعاناة أسفارهم ..

وتظهر البلاغة اللغوية في الحديث في استخدام لفظ الإبل مع المائة ، فهي علي سبيل التأكيد واستهلال الحديث الشريف بأسلوب القصر (إنما) فهو يزيد المعني تأكيدا آخر..
((أما التعبير بقوله : (لا تكاد) ففيها زيادة المعني وتصديق الواقع ، والنفي المطلق محمـــول علي المبالغة ، إذ لا يعدم وجود الكريم ، قال القرطبي : الذي يناسب التمثيل أن الرجل الجـــواد الذي يحمل أثقال الناس والحمالات عنهم ويكشف كربهم عزيز الوجود كالراحلـــة فـــي الإبـــل الكثيرة)) [٣] .

. ــــ . . ــــ . . ــــ . . ــــ . . ــــ . . ــــ

• التصوير والموسيقي :

عندما تكون أدوات الصورة طيعة في يد المبدع ، فإنه يستطيع أن يوظفها في مهارة وتمكن لأداء فرضه وإبراز فكرته ، بل يستطيع بإحساساته ومشاعره أن يسلط تصويره علي الأشـــياء من حوله فيصنع من التناقضات نسقا مرتبا متراصا في تلاصق صميم يعمل علي بعث عواطف النفس وتحركها من مكانها ، ذلك لأن أنواع الصور تتفاعل داخل النـــص الواحـــد ((لتـــؤدى

[١] د. محمد عبد المطلب مصطفي ـ البلاغة والأسلوبية ـ القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ـ ١٩٨٤ ـ ص ٢٤٨ .
[٢] فتح الباري ١١ / ٣٤١ .
[٣] فتح الباري ١١ / ٣٤٣ .

مهمتها في نقل عواطف الأديب إلينا ، ومن ثم انبعاث عواطفنا الكامنة والمقابلة لهذه الخيالات أو الصور ، فإذا صدقت عاطفة الأديب ، واقعيا أو فنيا ، كان الخيال رائعا ومؤثرا)) [١] .

• وفي الحديث الآتي نري النبي ﷺ قد رسم صورة واقعية للتأكيد علي التراحم بين المسلمين يقول رسول الله ﷺ :

" ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادِّهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى " [٢] .

فقد اتخذ من الجسد أداة للتصوير وبعثا للخيال ، فربط بين جماعة المؤمنين والجسد ، ((والمشبه والمشبه به مفردان غير مركبين ولكن وجه الشبه مركب من حالة الترابط والتكامل التي تجعل الأجزاء كلها تعمل متساندة ، حتى إذا طرأ خلل علي جزء واحد منها تأثرت به سائر الأجزاء)) [٣] .

فاعتمد التشبيه علي التمثيل والمحاكاة والرؤية البصرية (ترى) ، وأدى دورا فعالا في إبراز عنصر الجمال في التعبير ، قال القاضي عياض : ((فتشبيه المؤمنين بالجسد الواحد تمثيل صحيح ، وفيه تقريب للفهم وإظهار للمعاني في الصور المرئية ، وفيه تعظيم حقوق المسلمين والحض علي تعاونهم وملاطفة بعضهم بعضا)) [٤] .

• وقد سري في الحديث موسيقي هادئة تناسب طبيعة الموضوع ورقته ولينه ، فيبعث التواد والتراحم في النفس فالتراحم أمر قلبي إيماني ، والتواد أمر حسي حركي يظهر في التزاور ونحوه ، والتعاطف فيه التفاعل والمعاونة ، فسمعنا أصواتا تتهادى ألفاظها وعباراتها إلي القلب في سهولة وانسياب ، موسيقاها لا صخب فيها ولا خفوت ، فالكلمات تتعاطف في عطف لغوي " تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم " تتآلف مقاطعها وتتناسق أصواتها ، وقد شاع في جو المشهد

---

[١] د. أحمد بسام ـ الصورة بين البلاغة والنقد ـ ط ١ ـ المنارة ـ دمشق ـ ١٩٨٤ ـ ص ٢٩ .

[٢] فتح الباري ١٠ / ٤٥٢ .

[٣] د. محمد مصطفي هدارة ـ علم البيان ـ ط ١ ـ دار العلوم العربية ـ بيروت ـ ١٩٨٩ ـ ص ٣٧ .

[٤] فتح الباري ١٠ / ٤٥٤ .

صوت قوي يثير الانتباه من أثر تداعى بنيان الجسد استجابة لبعضه ، وذلك في قوله ﷺ " تداعى " ..

ونلاحظ ذلك الإيقاع الداخلي للكلمتين : السهر والحمى .. فالسهر وعدم النوم ناشيء من وجود الألم الذي يتضافر مع السهر لإيجاد الحمى ، " فهذا التنسيق للكلمات والعبارات الخالصة من الغرابة والتنافر قد جعلها مؤثرة من عدة أوجه دفعة واحدة مع أنها لا تعطى إلا حقيقة واحدة ، مما جعل التصوير في نقله للمعاني يربط بدقة ومهارة بين أجزاء العبارة ، وبين العبارة وما يجاورها من عبارات بروابط الشرط والصلة وحروف العطف " [1] .

• وصورة تصويرية أخرى مستوحاة من البنيان والإشارة باليد ، يقول ﷺ :

" المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا . وشَبَّك بين أصابعه " [2] .

فقد اتخذ من البنيان أداة للتصوير وبعثا للخيال ، وهذا الاستهلال (المؤمن للمؤمن) يثير الذهن ويحرك العاطفة ، وكأنه جعل اللفظين متلاصقين في تجاور وتلاحم ، ليرسم تلاصق البنيان وتلاحمه فيما بينه ، ثم تأتي الصورة الحسية للبنيان وهو يقف في رسوخ يشد بعضه بعضا ، وكلمة (البنيان) مع ما فيها من أصوات وحروف وحركة مد الألف تعطى جرسا قويا وقد زاد من شدته وقوته ، البناء الصوتي لـ : (يشد) لأن المراد بعث الصلابة والقوة في الصف الإسلامي لتكون هذه هي صورة المؤمنين مع بعضهم .. ويربط النبيﷺ هذا المعنى الذي يريده بتمثيل آخر يظهر في حركة صامتة : (وشبك بين أصابعه) ..

• وهذا التمثيل الحركي جاء في موضع آخر حيث يتحدث عن كفالة اليتيم في قولهﷺ :

" أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا . وقال بإصبعيه السَّبابة والوسطى " [3] .

• وإذا نظرنا إلي هذه الأحاديث السابقة ، وجدنا دقة التصوير وإصابة المعني .. فعندما كان المراد تصوير المؤمنين مع بعضهم البعض في تعاون وتآلف ، اتخذ النبيﷺ من الجسد أداة

---

[1] د. أحمد ذكي ـ النقد الأدبي الحديث أصوله ومناهجه ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ـ ١٩٧٢ ـ ص ٨٠ .

[2] فتح الباري ٥ / ١١٩ .

[3] فتح الباري ١٠ / ٤٥٠ .

للتصوير ، لأن الجسد يمثل الروح التي تبعث في الإنسان الحياة ، والجسد يمثل سريان المشاعر والأحاسيس ، وذلك من أسمى الأهداف التي أراد النبي ﷺ إثباتها ..

• وعندما كان المراد تصوير عظم أجر كافل اليتيم ومجاورته للنبي ﷺ في الجنة اتخذ من تجاور الإصبعين وشدة قربهما أداة للتصوير ، ولذلك لم يفصل بينه ﷺ وبين كافل اليتيم بفاصل لفظي في استهلاله للحديث ، فقال : (أنا وكافل اليتيم في الجنة) ، ولم يقل : أنا في الجنة وكافل اليتيم .. ولم يقل : أنا مع كافل اليتيم ، ولكنه قال : (أنا وكافل اليتيم) لما تصوره الواو من الجمع والاشتراك .. فيتبين من ذلك أنه ليس المراد بتبشير كافل اليتيم بالجنة فحسب ، ولكن تبشير بمجاورة النبي ﷺ في الجنة ، كما أن كلمة " كافل " وإضافتها إلى " اليتيم " تشيع في جو الحديث موسيقي هادئة وإيقاع نفسي مأنوس ، ليناسب طبيعة الموضوع .

• التشبيه التمثيلي القصصي :

لما كان العرب أصحاب تذوق أدبي وحس بلاغي مرهف ، وألفوا الأسلوب القصصي في القرآن الكريم ، فقد استخدم النبي ﷺ هذا الفن الأدبي وسيلة للدعوة والتقريب للأفهام .. وعندما يأتي التشبيه التمثيلي من خلال الوعاء القصصي فإن ذلك البناء المحكم يُلقي بظلاله علي خيال المتلقي ، فيجعله يعيش جو الحدث في واقع حقيقي متكامل البناء ، إلا أن القصة لا تنقل الواقع نقلا حرفيا أو تصويرا آليا ، وإنما تنقل الواقع من خلال خيال القصّاص ، " فالقصّاص مهما كان واقعيا لا ينقل الواقع طبق الأصل ، وإنما يحذف ويضيف فيه حسب إرادته الفنية .. والقصّاصون كثيرون ، ولكن الذي يخلده منهم هو الذي يستطيع أن يتغلغل في أعماق الأفراد وينفذ إلي كيانهم الداخلي وما يرسب فيه من جواهر باقية علي الأبد " (١)

وتتشابك العناصر الفنية تشابكا وطيدا من أجل إبراز الهدف والمعني المراد .. وربما جاءت القصة معتمدة علي السرد والخبر في إبراز الحدث ، فتتوارى الشخصيات وتنزوي لأن الحدث هو المقصود ، وربما كان الهدف من سياق القصة إبراز الأمة في صورة فرادى من

---

(١) د. شوقي ضيف — في النقد الأدبي — ط٦ — دار المعارف — القاهرة — ١٩٨١ — ص ٢٢٨ .

الشخصيات التي تحمل أبعادا شخصية مختلفة فنجد التركيز علي محورها والاهتمام بإبرازها والكشف عنها في صورة واضحة .

وقد ظهر ذلك جليا واضحا في شخصيات عديدة ، على نحو ما مر من شخصية القائم علي حدود الله والواقع فيها ، أو شخصية الجليس الصالح والجليس السوء ، أو شخصية المنافق الذي تندلق أقتابه في النار ، وهي شخصيات تمثل نوازع النفس البشرية ، وتبرز ما تحمله من خصال خير أو شر ، ثم تبين مصيرها في الآخرة ، وهذه الشخصيات الواردة في تلك الأحاديث القصصية يمكن أن نسميها " الشخصيات الجاهزة ، وهي الشخصية المكتملة التي تظهر في القصة ــ حين تظهر ــ دون أن يحدث في تكوينها أي تغير ، وإنما يحدث التغير في علاقاتها بالشخصيات الأخرى فحسب أما تصرفاتها فلها دائما طابع واحد " (١) .

وعلي الجانب الآخر " نصادف شخصيات معنوية تؤدي دورا كدور الشخصيات من البشر ، تدير حوارا مع الإنسان ويعرف الإنسان حقيقتها في إجابتها علي سؤاله ، كالعمل الصالح ، والموت الذي يذبح وهو علي هيئة كبش أملح يراه أهل الجنة وأهل النار وهو موقوف علي الصراط " (٢) .

• أما الحوار فهو يأتي في ذلك القصص النبوي لخدمة الحدث والشخصية والعمل علي رسمها وإبراز انفعالاتها وما تنطوي عليه .. وقد أظهر الحوار فيما مضى من أحاديث شريفة أحداثا ومواقف غيبية ، تحمل مشاهد اليوم الآخر ، فيجعل الحوار تلك المواقف والمشاهد ماثلة أمام العين ..

• وقد تميز الحوار في الأسلوب القصصي النبوي بالحيوية والوضوح ، فعمل علي شد انتباه السامع ورسم الحدث متتابعا في دقة ووضوح ، فيقبل المخاطب عليه في همة ونشاط ، تاركا وراءه السآمة والملل .

---

(١) د. عز الدين إسماعيل ــ الأدب وفنونه دراسة ونقد ــ ط٥ ــ دار الفكر العربي ــ ١٩٧٣ ــ ص ١٩٢ .

(٢) د. أحمد العلي ــ مشاهد القيامة في الحديث النبوي ــ ص ٣٨٦ .

ويجب أن " يحتوى الحوار الجيد علي صفتين أساسيتين هما : التركيز والإيجاز ؛ وقد كان الرسول ﷺ يتخذ من الحوار أداة تعليمية يحرك بواسطتها أذهان الصحابة فيما يريد أن يتحدث إليهم فيه حتى يتمكن الحديث من أنفسهم فضل تمكن " [١] .

- وقد جاء الحوار في الحديث النبوي من عدة طرق ، منها :

(أ) أن يعمل النبي ﷺ علي إثارة أذهان الصحابة ، فيلقي إليهم سؤالا فينظر كيف يجيبون ثم يرشدهم إلي الصواب ، وذلك كقوله في الحديث السابق ذكره " أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمسا ، ما تقول ذلك يُبقي من درنه ؟ قالوا : لا يُبقي من درنه شيئا . قال : فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا " [٢] .

(ب) ألاَّ يبدأ بالسؤال ولكنه يبدأ بجملة خبرية تحمل غرابة وتحتاج إلي إمعان فكر ، فيقع المستمع في إثارة ذهنية وشوق إلي معرفة الحقيقة،ومما جاء في ذلك قوله ﷺ : " إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها ، وإنها مثل المسلم ، فحدِّثوني ما هي ؟ فوقع الناس في شجر البوادي ، قال عبد الله : ووقع في نفسي أنها النخلة ، فاستحييت . ثم قالوا حدِّثنا ما هي يا رسول الله . قال : هي النخلة " [٣] .

٥ أما الزمان والمكان فأغلب ورودهما في مشاهد القيامة وإبراز أحداث اليوم الآخر وتجلية مواقفه ، ويمثل المكان الوعاء الذي يحمل الأحداث ، وكما مر بنا في حديث بيان صفة أرض المحشر ، حيث حمل المشهد وصفا دقيقا ورسما حسيا لأرض المحشر فوصفها بأنها بيضاء عفراء كقرصة النقي .

---

(١) د. فرج سليم ــ في رحاب البلاغة النبوية ــ ط١ ــ مطبعة الرضا ــ المنصورة ــ ١٩٨٦ ــ ص ١٣٦ .

[٢] فتح الباري ٢ / ١٤ .

[٣] المصدر السابق ١ / ١٧٥ .

الخاتمة

وبعد هذه الوقفة اليسيرة التي أمسكنا من خلالها بذلك الثمر الطيب للبيان الرائق ، نخلص إلي النتائج الآتية :

• عمل التشبيه التمثيلي في البيان النبوي علي تجسيد المعاني وإبرازها في صورة محسوسة تزخر بالحياة والحركة ، فكان ذلك أبلغ في رسوخها في النفس وتأكيدها في الذهن .

• تحقق الغرض البلاغي من التشبيهات علي نحو دقيق،إذ لم يكن التشبيه هدفا في ذاته ، وإنما وسيلة لإظهار الخفي من المعاني وسهولة إدراكها ، وقد أدى إلي تحقيق ذلك انطلاق التشبيه كالسهم المصيب لهدفه في قوة وتمام .. وكان التشبيه ينسج من ملاءمة لفظية وجمل تركيبية تناسب المعني ، فاتفق المبني مع المعني ، وكان كثيرا ما يعتمد علي الحواس للتوضيح والإفهام

• كانت الصورة التشبيهية منتزعة من البيئة ومعتمدة علي عناصر الطبيعة ، وقد ظهر ذلك جليا في تمثيل المؤمن بخامة الزرع وبالنخلة ، وتمثيل المجتمع بركاب السفينة ، وتمثيل الموت بالكبش الأملح ، إلي غير ذلك مما ورد في الأحاديث السابقة .

• كانت أوجه الشبه أشهر وأعرف في المشبه به في كل الأغراض ، فجاءت واضحة متفقة مع الذوق السليم غير مجافية للطبع القويم ، وكانت أكمل وأتم عند إرادة تأكيد الصفات وتقريرها في المشبه .

• كثر التشبيه التمثيلي في كلام النبي ﷺ في حديثه عن الغيبيات والمعنويات التي لا يعلمها المخاطَب، ولهذا كان يقرنها بما استقر في أفئدتهم واختزنته نفوسهم ، وبما ألفوه واعتادوه مما أدى إلي تفخيم المعاني في النفوس ونقل المعقول إلي المحسوس في إيضاح قريب ، فالتشبيه أكثر الفنون البيانية تأثيرا في النفس وتقريبا للفهم ، ولهذا كان عبد القاهر الجرجاني يطيل في الكلام عن أسراره وفنه ، ويقدمه علي غيره من الفنون الكثيرة في كتابه أسرار البلاغة .